رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم في أشعار الصحابيات رضي الله عنهن

أ.د. عبدالله فتحي ظاهر(*)

تحتفظ الأمة العربية الإسلامية بتراث ضخم عن المراثي، ولكل أمة مراثيها. والرثاء باب من أبواب الشعر نحا فيه الشعراء العرب ثلاثة مناح هي الندب والتأبين والعزاء، أما الندب فبكاء وتفجّع وأنين حين يعصف الموت بالأهل والأقارب والأحبة، وتكون أشعار الرثاء متنفسا لهم يبثون عبرها صدى اللوعة وحرق القلب. وينزل التأبين منزلة بين الندب والعزاء، وذلك أنه ليس بنشيج ولا عويل أو نواح يصاحبه لطم الخدود وشق الجيوب، بل هو أدنى إلى الثناء وتسجيل مناقب المرثي منه إلى الحزن الخالص، أما العزاء فمرثية عقلية يعبر فيها الشاعر عن حقيقة الموت جاعلا منها سبلا إلى الدعوة للتفكير والاتعاظ، وقد عرف العرب منذ القديم المآتم، وبخاصة في مجتمعات النسوة النادبات المعولات، ولقد أباح الإسلام الندب ما لم يصاحبه خمش للوجوه وحلق للرؤوس وخروج على مألوف الفطرة السليمة وذلك لما فيه من تنفيس عن ذوي الميت.

إن حزن النساء مقدم على حزن الرجال على ميت بما امتاز به النساء على الرجال من طغيان العاطفة لديهن، فالنساء – كما يقول ابن رشيق: (أشجى قلوباً عند المصيبة وأشدهم جزعا على هالك لما ركب الله عز وجل في طبعهن من الخور

(*) قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب / جامعة الموصل.

وضعف العزيمة)[1] وصدق الحس على الرغم من أن المرأة العربية أحمل الناس لنازلة وأصبرهم على ملمّة، غير أنها إذا انتزع الموت منها أليفا حميما أو عزيزا كريما فهي تسير في شعاب من الأحزان مطلقة لعواطفها العنان، مضاعفة بذلك الأحزان، مورثة ضرام حشاها، ولقد قصرت شواعر عربيات اكثر أشعارهن على الرثاء كالخنساء وليلى الأخيلية والخرنق وغيرهن وقد أكد هذا كثير من مؤرخي الأدب القدماء منهم الأصمعي وابن قتيبة وابن المعتز[2].

لقد وصل إلينا من مراثي النساء ما يعبر عن مظاهر الحزن، منها ما لم يصاحبه إيذاء للنفس ولم نجد فيه أكباداً مقرحة ولا أنفاسا حرّى وذلك في أشعار النسوة المحرضات على القتال والقتل للثأر شعوراً منهن بواجب المشاركة بطقس مقدس لديهم، وكثيراً ما قرأنا عن شواعرَكُنَّ يبكين الموتى بأشعارهن أداءً لوصية يوصي بها أبٌ أو أخ أو ابن أو زوج أو قريب، فهذا طرفة بن العبد يخاطب ابنة أخيه ويسألها أن تبكيه إن هو مات، وأن تشقّ لفقده جيبها مظهرةً بذلك أشدّ الحزن والألم والتأثر، يقول طرفة[3]:

إذا متّ فانعيني بما أنا أهلـــــه وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبـد

ولا تجعليني كامرئ ليس همه كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي

وأشعار الرثاء في هذا المنحى كثيرة منها أشعار لفاطمة بنت الاحجم وأمامة بنت ذي الإصبع العدواني وبعض أشعار الدخنتوس وليلى الأخيلية وسواهن، وقد

---

(1) العمدة، ابن رشيق القيرواني، 2/ 153.

(2) ينظر فحولة الشعراء، 317 والشعر والشعراء، 1/ 459 وطبقات الشعراء، 149.

(3) ديوانه، 39.

كان هذا المنحى تقليدا مرعيّا عندهن يدلك على ذلك كثرة شواعر العرب الراثيات(4). فهن لسان حال القبيلة الراثي الباكي الحزين، كما كان الشاعر لسان حال القبيلة المفاخر المادح الهاجي.

أما المنحى الثاني فهو ما قرأناه في أشعار لنسوة تسيل ألماً ولوعة وتفجعا، وقد تمثل اغلبها في بكائهن أبنائهن أو إخوانهن أو أزواجهن أو آبائهن، وكانت أشعار ليلى الأخيلية في صاحبها توبة والخرنق في زوجها بشر وجليلة في زوجها كليب والخنساء في طور شعرها الأول في رثاء أخويها صخر ومعاوية وصفية بنت عبدالمطلب في رثاء أبيها، كانت تلك الأشعار تمثل الندب بعبارات مشجية وألفاظ محزنة تصدع القلوب القاسية في من يموت حتف انفه أو قعصا بالرماح والسيوف...

غير أنا وجدنا فقدا فاق كل فقد.... فقدا كان جللا، أصاب المسلمين حين أفل النور الذي أضاء بطاح الكون ونجوده وجباله وفيا فيه، هذا الفقد أحال المدينة وبلاد المسلمين إلى بركان يقذف بحمم الندب والبكاء الصادق، فاندفعت الألسن تعبر مع العيون عن عواطف مسرعة صارخة صادقة، فقد عصف النبأ الأليم الفادح الوقع بهم فاغبرت له أمام عيونهم آفاق السماء، وكأن الشمس قد كوّرت والنجوم قد أنكدرت وتزعزعت الآطام وبكت الأرض والسماء حتى أمست الحياة كلها لفقده حزينة كئيبة باكية، وحق للمدينة أن تضج أجواؤها بالبكاء وان يتنادى شعراؤها بالحزن واللوعة، وذلك ليس بغريب على أصحابه وذويه، فلقد كاد بعض أولي العزم من الرجال ان يفقد صوابه، فلم يصدق ذلك النبأ لولا أن بصّره الحقيقية أبو بكر الصديق رضي الله عنه ... وخرج الرجال يشيعونه إلى مثواه المعطر بقلوب ملتاعة واجفة وماق دامعة.

---

(4) ينظر رياض الأدب في مرثي شواعر العرب، لويس شيخو، 66/21/1، 70.

لقد كان شعور المسلمين أن الجماد فضلا عنهم خِر مغشيا عليه حين سمع النبأ الحزين فكيف بآله، والنسوة منهم خاصة، فقد عُرفن بسرعة التأثر والفقيد قريبهن وسيدهن جميعا بل سيد الكونين.

لقد آثرت النسوة رثاء النبي صلى الله عليه وسلم فانشغلن به لأنهن لم يكدن يستلهمن الصبر على ابن أو أخ أو زوج أو قريب، حتى يفاجأن برزء حبيب أثير كريم، وكان ذلك الرزء قد افقدهن الجلد حين فاق حدود تصورهن، وكانت النسوة من آل النبي صلى الله عليه وسلم المقدمات في رثائه منهن السيدة فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ومنهن عماته الفاضلات وقريباته رضي الله عنهن ذلك فضلا عن قصائد بثها كبار الشعراء وفي طليعتهم حسان بن ثابت وأبو سفيان بن الحارث وغيرهما رضي الله عنهم[5].

إن أشعار شواعر الرسول صلى الله عليه وسلم لم تختلف كثيرا عن أشعار العصر والبيئة لأنهن كغيرهن من الشعراء يجعلن من المعاني والقيم الخلقية أساسا في رثائهن كالشجاعة والسيادة والكرم والمروءة فضلا عن البر والإيثار والرحمة وسواها، وهذه القيم – كما تبدو – بعضها معروف في شعر ما قبل الإسلام وبعضها الآخر لم يكن يعرف بهذه المعاني من قبل كما أنها لم تكن بمستوى المعاني الأول من الانتشار، لذلك فان اغلب ما اثر من رثائهن تقليدي، ولم يخل من معان إسلامية تفصح عنها ألفاظ واضحة الدلالة.

الرثاء التقليدي: وردت قصائد في أشعار شواعر الرسول صلى الله عليه وسلم تحمل معاني وصفات عديدة كانت وما تزال تدخل في أشعار الرثاء والمديح معا منها الشجاعة والكرم وحسن الرأي وسواها، وقد أوردها الشعراء قديما في

(5) ينظر ديوان حسان بن ثابت وديوان كعب بن مالك وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لابن هشام، فـ2.

رثائهم موتاهم كما ذكرها شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم في رثاء نبيهم الأكرم صلى الله عليه وسلم من ذلك قول حسان[6].

كشّاف مكرمةٍ مطعام مسغبةٍ   وهّاب عانيةٍ وجناءَ شـملالِ
واري الزناد وقوّاد الجيادِ إلى   يومِ الطراد إذا شَبّت بأجدالِ

وهذه السيدة هند بنت اثاثة قريبة النبي صلى الله عليه وسلم تذكره مؤبنة[7]:

أشابَ ذؤابتي واذلّ ركنـــي   بكاؤكِ فاطمُ الميتُ الفقيدا
فأعطيتَ العطاءَ فلم تكــدّرْ   وأَخدمتَ الولائدَ والعبيـدا
وكنتَ ملاذَنا في كلِّ لِزْبٍ   إذا هبّت شاميةً بـــرودا[8]
وانك خيرُ من ركبَ المطايـا   وأكرمُهم إذا نُسبوا جدودا

أما السيدة صفية بنت عبدالمطلب[9] عمته فتقول[10]:

ثمال المعدمين وكلّ جـــار   ومأوى كلّ مضطهد غريبِ
فأما تمسِ في جدَث مقيمـــاً   فِقدّما عشتَ ذا كرك وطيبِ

(6) طبقات ابن سعد 2/ 92.

(7) م. ن 2/ 95 وينظر منح المدح، أبن سيد الناس 262.

(8) اللزب: الطين وأراد هنا كل مكان.

(9) صفية بنت عبدالمطلب بن هاشم زوجة العوام بن خويلد وأم الزبير كانت مسلمة يحرص النبي صلى الله عليه وسلم على مراعاتها حبا لها، شهدت كثيرا من معارك الجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم ودافعت عنه، لها أشعار رقيقة متينة السبك غلب عليه رثاء النبي صلى الله عليه وسلم وأخيها حمزة رضي الله عنه وأبيها، توفيت سنة 20هـ.

(10) طبقات ابن سعد 96/2.

وتمضي هذه القصائد على هذه السبل المعهودة من حيث الشكل خاصة واهم تلك الأساليب أو السبل افتتاحية القصيدة، فقد وردت قصائد كثيرة افتتحت بالبكاء ودعوة العين إلى البكاء، ومن ذلك قول السيدة أروى بنت عبدالمطلب [11] في نعي ابن أخيها نادبة باكية[12]:

إلا يا عينُ ويحكِ أسعدينـــي بدمعكِ ما بقيتِ وطاوعيني

إلا يا عينُ ويحكِ واستهلّي على نورِ البلادِ وأســعديني

أما السيدة عاتكة بنت عبدالمطلب[13] فتقول في ذلك[14]:

عينيَّ جودا طوال الدهرِ وانهمرا سكباً وسحاً بدمعٍ غير تعذيـــرِ

يا عينُ فانهملي بالدمعِ واجتهدي للمصطفى دون خلقِ الله بالنورِ

وتقول[15]:

يا عين جودي ما بقيتِ بعبـــرةِ سحّاً على خيرِ البريةِ أحمدِ

يا عين فاحتفلي وسحي واسجمي وابكي على نور البلادِ محمدِ

وتقول[16]:

---

(11) أروى بنت عبدالمطلب دعاها أبنها طليب إلى الإسلام فأسلمت وناصرت النبي صلى الله عليه وسلم وحثت ابنها على نصرته والقيام بأمره.

(12) طبقات ابن سعد 2/ 97.

(13) عاتكة بنت عبدالمطلب أسلمت وقالت في الرسول صلى الله عليه وسلم أشعارا كثيرة وبعضهم لم يقل بإسلامها وقد جاء في أسماء الصحابة 2/ 298 والتحفة اللطيفة للسخاوي أنها أسلمت هي وأروى وصفية وأميمة عمات الرسول صلى الله عليه وسلم (رضي الله عنهن).

(14) طبقات ابن سعد 2/ 93.

(15) م. ن: 2/ 94.

(16) م. ن: 2/ 94.

أعيني جودا بالدموعQ السِواجمQ على المصطفى بالنور Q من آل هاشمQ

وسلكت السيدة صفية السبيل نفسه حين ندبته بقولها[17]:

عينيّ جودا بدمــعQ سَجــــمْ يبادر غرباً بمـــا منهــدمْ

ثم تسأل السيدة صفية ابنة أخيها السيدة فاطمة أن تبكي أباها فتقول[18]:

اَفاطمُ بكّي ولا تســـأمـــي بصبحكِ ما طلعَ الكوكـبُ

هو المرءُ يبكي وحُقَّ البكاءُ هو الماجدُ السيد الطيّـــبُ

فبكّـي الرسولَ وحُقت لـــه شهودُ المدينـــة والغيّـــبُ

لتبكيكَ شمطاءُ مضـــرورةٌ إذا حُجبَ الناسُ لا تحجبُ

ليبكيكَ شيخٌ أبـــو وُلـــدَةٍ يطوفُ بعقويّـــهِ أشهـــبُ

ويبكيكَ ركب إذا أرمَلـــوا فلم يلفِ ما طلبَ الطـُلـّبُ

وتبكي إلا باطحُ من فقدـــدِهِ وتبكيهِ مكةُ وإلأ خشـــبُ

وللسيدة صفية وأخواتها وقريباتها مقطوعات كثر في ندبه وتأبينه لا تخرج عن هذه الشواهد من حيث الشكل والمضمون مبثوثة في بطون الكتب [19] اذكر منها مطلع مقطوعة هند بنت اثاثة[20]:

إلا يا عيـــنُ بكـّـي لا تملـّـــى فقد بكـرَ النعيُّ بمن هوَيتِ

---

(17) م. ن: 2/ 95.

(18) م. ن: 2/ 95.

(19) ينظر ديوان صفية، مجلة المورد، 80.

(20) طبقات بن سعد 97/2

وفي مقطوعة أخرى تسأل هند بنت الحارث عينيها أن تجودا بالدموع فتقول[21]:

يا عينُ جودي بدمعٍ منك وابتدري   كما تنزّل ماءُ الغيثِ منسكبا

وكذلك فعلت أم ايمن حين سالت عينيها أن تجودا بسخين الدمع فقالت[22]:

حين قالوا الرسولُ أمسي فقيدا   ميّتا كان ذاك كلّ البلاءِ

وابكيا خيرَ من رزئناه في الدنيا   ومن خصّه بوحيِ السماءِ

بدموعٍ غزيرةٍ منك حتى   يقضيَ الله فيك خيرَ القضاء

ولم تقتصر شواعره في ذلك على دعوة عيونهن إلى البكاء وحسب فقد دعون مظاهر الطبيعة وظواهرها إلى مشاركتهن البكاء والحزن، فقد كن يرين إن الطبيعة كانت هي الأخرى حزينة لهذا الفقد.... لذلك فقد صرح الشعراء والشواعر به، فهذا أبو ذؤيب الهذلي يصل المدينة في الوقت الذي فارق فيه النبي المدينة إلى جوار ربه فيفاجأ بالنعي فلم يملك نفسه حتى بكى واستبكى وأيقن أن النجوم والجبال والأشجار تبكي مع الناس ذلك الثكل فقال[23]:

كُسِفت لمصرعه النجوُم وبدرُها   وتزعزعت آطامُ بطن الابطح

وتزعزعت أجيالُ يثربَ كلُها   ونخيلُها لحلول خطبِ مفدح

وعلى الرغم من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد قال يوم وفاة ابنه إبراهيم رضي الله عنه: "أيها الناس إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله وانهما لا

(21) طبقات بن سعد 2/ 96.

(22) م. ن: 2/ 98.

(23) الاستيعاب، ابن عبدالبر، ق4، 1650.

تنكسفان لموت أحد من الناس ولا لحياته [24]" على الرغم من ذلك وجدنا أن فداحة الحدث زعزعت أركان كيان راسخ مكين مستقر في نفوس المسلمين حتى حين، ليعود الناس إلى صواب التفكير وتهدأ النفوس وتسترجع الألسن والقلوب بعد اَن حمدت الله تعالى.... كل أولئك كان قد دعاهم إلى التعبير عن الفقد معتقدين حزن كل شيء فهذه السيدة فاطمة رضي الله عنها ترى ان مظاهر الطبيعة أمست على غير ما جبلت عليه حين سماع النبأ فقالت[25]:

أغيرّ آفاقُ السماء وكــوّرت   شمسُ النهار وأَظلم العصران

فالأرضُ من بعدِ النبي كئيبةٌ   اَسفاً عليه كثيرة الرجفـــــان

وقالت[26]:

إن يوما أتى عليـــك ليـــوم   كوّرت شمسُه وكـــانَ جليـــا

وتدعو البيت المعظم والبلاد إلى مشاركتها الحزن والبكاء فتقول[27]:

فليبكهِ شرق البلادِ وغربُـــها   وليبكِه مصرٌ وكــــلُّ يمـــان

وليبكِه البيت المعظّم جـــوُه   والبيتُ ذو الاستار والأركـــان

وترى السيدة صفية اَن مكة وأباطحها وأخشبها تبكي النبي صلى الله عليه وسلم فتقول[28]:

وتبكي الا باطحُ مـــن فقـــدِه   وتبكيهِ مكـــــةُ وآلا خشـــبُ

(24) صحيح مسلم 3/ 31.

(25) العمدة، 2/ 153.

(26) الذخائر والأعلاق، البخاري، 240، عن دراسات في الأدب الإسلامي للدكتور سامي العاني، 55.

(27) العمدة 2/ 153.

(28) طبقات بن سعد 2/ 95.

وتؤكد السيدة هند بنت اثاثة ان المصيبة به أصابت الوهاد والنجود فضلا عن الناس فتقول(29):

افاطمُ فاصبري فلقد أصابت رزيّتُك التهائمَ والنجــــودا

وتنظر السيدة عاتكة بنت زيد إلى ركائب السيد الجليل فتراها حزينة تجول في عيونها الدموع تبكي قائدها ومن ذللت له ضهواتها طائعة مختارة، تقول مترجمة حال خيله وحال نفسها(30):

أمست مراكبُه أو حشَت وقد كانَ يركبُها زَينــُـها

وأمست تبكـّي على سيدٍ تردّدُ عبرتها عينـُهــــا

انه الإحساس الصادق بلوعة الفقد التي أنطقت هؤلاء النسوة بصدق التعبير الذي ما ان يلامس المسامع حتى يستقر في القلوب فستعبر العيون بدموع سخينة، وكيف لا وهن قريباته ومن ذوي رحمه وطالما حدب عليهن ورعاهن ودعا لهن. هذا الإحساس الصادق انتج تلك القصائد والمقطوعات المعبرة الصادقة التي سلكن فيها سبيلا قديما معروفا ولم يناف معاني الإسلام.

المعاني الجديدة: لم ترد المعاني الجديدة في قصيدة الرثاء في صدر الإسلام مجردة عن المعاني التي فاخر بها العرب من قبل وامتدحوا بها زعماءهم وأبطالهم وأجوادهم مما اقره الإسلام من السجايا والمعاني حتى عدت إسلامية، لذا فإننا غالبا ما نجد الجديد مع القديم في أشعارهم الإسلامية، ومن تلك المعاني ما حملتها الألفاظ الإسلامية فجاءت بها معاني جديدة كالوحي والتنزيل والقرآن والإسلام والبر والنور والخلود والبارئ وصفوة الله وغيرها... فهذه السيدة فاطمة رضي الله عنها تقف على

---

(29) م. ن: 2/ 97.

(30) م. ن: 2/ 97.

قبر والدها العظيم فتذكر الوحي الذي انقطع مع غياب النبي صلى الله عليه وسلم وتذكر الكتاب الذي تم نزوله قبيل وفاته عليه الصلاة والسلام فتقول[31]:

أنا فقدناك فقدَ الأرضِ وابلَها   وغابَ منذ غبتَ عنا الوحي والكتبُ

إنها ترى في أبيها الخير والنماء والغيث، وترى ان الناس فقدت بفقده غبائها الذي يصلها بالسماء ويستنزل الرحمة من الله تعالى....

وهذه أم ايمن تذكر هي الأخرى الوحي مقرونا بذكر النبي صلى الله عليه وسلم فتقول[32]:

وابكيا خير من رزئناه في الدنيا ومن خصه بوحي السماء وتصفه السيدة عاتكة بالبر والعدل والتقى فتقول[33]:

وسحّا عليه وابكيا ما بكيتُما   على المرتضى للمحكماتِ العزائمِ

على المرتضى للبر والعدلِ والتقى   وللدين والإسلامِ بعد المظالمِ

على الطاهرِ الميمونِ ذي الحلم والندى   وللفضلِ والداعي لخيرِ التراحمِ

وتصفه السيدة صفية بصفوة الله والمطهر الاواب فتقول[34]:

أعينيَ جودا بدمعٍ سجم   يبادر غربا بما منهدمْ

على صفوةِ الله ربِ العبادِ   وربِ السماءِ وباري النسَمْ

وتقول[35]:

---

(31) م. ن: 2/ 98.

(32) م.ن: 98/2.

(33) م. ن: 2/ 94.

(34) م. ن: 2/ 95 و ديوان صفية.

(35) طبقات ابن سعد، 2/ 95.

عينُ جودي بدمعةِ تسكابِ   للنبـــيِّ المطهّــرِQ الأوابِ

وهو السراج المنير النبي السيد العربي كما في شعرها أيضا(36):

وسراجا يجلو الظلامَ منيرا   ونبيّـا مســوّداً عربيـــا

وهو الهادي إلى السبيل صاحب الرسالة الرفيعة كما في قول السيدة هند بنت اثاثة(37):

قد كنت بدرا ونورا يستضاءُ بـــهِ   عليك تنزلُ من ذي العزةِ الكتبُ

وترفع عماته رضي الله عنهن اكف الضراعة إلى الله تعالى داعيات لابن أخيهن بالرحمة وبجنان الخلد وبالمغفرة، كالذي قرأناه في شعر عمته أروى القائلة(38):

عليكَ من الله الســـــلامُ تحيـــةً   وأدخلتُ جناتٍ من العدْنِQ راضيا

وفي شعر عمته صفية(39):

رضيَ الله عنه حيــــا وميتـــا   وجزاهُ الجنانَ يـــومَ الخلـــودِ

وفي شعر عمته عاتكة(40):

فاذهب حميداً جزاكَ الله مغفرةً   يومَ القيامةِ عندَ النفخ Q Q في الصورِQ

(36) ديوان صفية والذخائر والاعلاق 234.

(37) طبقات ابن سعد، 2/ 95.

(38) م. ن: 2/ 93.

(39) م.ن: 2/ 96.

(40) م. ن: 2/ 94.

وهناك مقطوعات أخر في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم غير ما ذكرنا، وردت فيها ألفاظ إسلامية، منها ما ورد ذكره فيما استشهدنا به، ومنها ما لم يرد ذكره... وكل تلك الألفاظ والتراكيب مما كان قائما على معانٍ إسلامية ومستمدا من التصور الإسلامي، هو نتاج التأثر المباشر بالقرآن الكريم وبالسنة المطهرة وبخلق النبي الأمين وصفاته عليه السلام وبالخلق الإسلامي، ولقد هذب الإسلام ألفاظ ومعاني كثيرة كان لها حضور في الشعر العربي قبل الإسلام ولم يبق لها مكان في أشعار صدر الإسلام الإسلامية إلا بالصورة الجديدة لها ... وابعد الإسلام ألفاظا ذوات معان لا تنسجم والفكر الإسلامي، وعد الاعتقاد بها جاهلية من مثل الصدى والهامة والبلية[41] والاعتقاد باستفادة الموتى في قبورهم من الماء المراق عليها، فقد كانت دعواتهم بسقيا القبور خاصة لهذا الاعتقاد.

عاطفة الحزن في أشعار شواعر الرثاء

على الرغم من أن المرأة العربية عرفت بالتجمل والصبر على النوازل واحتمال الملمات فقد عرفت كذلك بأنها ممن يهيمون على وجوههم حينا من الدهر إذا اختطفت المنية ذا رحم أو حميما قريبا فتراها تطلق لمشاعرها العنان فتعبر عن ملمة الفقد بما يؤجج في حشاها النار ويثير في سامعيها الأحزان، وتسلك في التعبير عن ذلك مسالك شتى، أهمها شعرها الراثي النادب الناعي، غير أن كثيرات من النسوة عرفن بالتجمل والاتشاح بالصبر والاتزار بكظم الحزن، إلا ما ظهر منه مما تشتفي به من بكاء وتكتفي به من رثاء، وهن اللائي يرين في ذلك الرأي الحسن

---

(41) الصدى أو الهامة: طائر يزعم العرب انه يخرج من هامة القتيل الذي لم يدرك أو أن روحه تصير طيرا فتصيح اسقوني اسقوني حتى إذا أدرك بثاره طارت (الا مالي للقالي 1/ 129).

الجزل مندفعات إلى هذا السلوك لاعتقادهن السليم بالله وبحسبهن الكريم في الناس، لذلك فهن على الرغم من أن فقد القريب مأتمة، يأبين مقارفة ما يهبط بهن إلى مستوى النواحات في معالجات الحرق وبث عواطف الحزن بطرق تتبعها الصالقات الحالقات الشاقات الجيوب النواحات...

إن عاطفة الحزن مما يشترك فيه الناس مع تفاوت في التعبير وفي التصرف والقوة، يفصل في ذلك بين الناس المعتقد والثقافة والعصر وأمور اجتماعية وبيئية كثيرة، أما شواعر الرسول صلى الله عليه وسلم فلم ينزل بهن الهلع الأكبر إلى منازل المسرفات الغاليات اللواتي إذا اهتاجهن ما يوجب الحزن أسرفن على أنفسهن أيما إسراف! بل لقد عبرت شواعر الرسول صلى الله عليه وسلم عن حزنهن بالبكاء وعن مشاعرهن إزاء الفقيد العظيم بالشعر الراثي ولم يسلكن سبلا تخرج بهن عن التجمل والصبر والحمد والاسترجاع، وكان قصارى تعبيراتهن عن الحزن البكاء وتصوير فداحة الفقد وأثره في الناس وفي أنفسهن، ومن خير من صور لواعج النفس وعاطفة الحزن بصدق من شواعر الرسول صلى الله عليه وسلم السيدة صفية فقد كانت أشعارها تلك صادقة التعبير عميقة التأثير حتى أن شفاء آلامها كان في نظم قوافيها لأن أشعارها في رثاء ابن أخيها خاصة كانت قطعة من قلب متألم حقا، من ذلك قولها[42]:

ليس مَيتـي كمثلِ من ماتَ من آل ... ناسِ ولا كانَ مثلـُه في الحـياةِ
طـــالَ ليلـــي لنكبــــةٍ قطعتنــــي ... لا أرى مثلَـها من النكبَـــاتِ

(42) ديوان صفية 87.

وقولها[43]:

يــمَ نــادى إلى الصـــلاةِ بـلالٌ فبكَينـــا بعـدَ النـداءQ مليّـــا
كل يـــوم أصبـحت فيـه ثقيـــلا لا يُـرد الجـوابُ منـك إليّــا
لم أجـــد قبلـــها ولســـتُ بــلاقٍ بعـدَها غصــة أمـرّ عليّـــا
ليتَ يومـي يكـون قبـلك يومـــا أنضجَ القلـبَ للحـرارة كيّـا

ومنهن زوجه السيدة عائشة التي قالت تصور نفسا معذبة وقلبا ملتاعا، فالفقيد زوجها وقد غادرها ولما تقض في كنفه إلا زمنا قصيرا، لذلك أنت تحس صدق مشاعرها وعمقها حين تقرأ قولها[44]:

قد كنت ذات حميةٍ ما عشتَ لي أمشي البراحَ وكنت أنتَ جناحي
فاليومَ أخضعُ للضعيفِ وأتـّقي منــه وأدفـعُ ظالمـــي بالـــراحQ
وإذا دعت قمرية شجّنـا لهـــــا يوماً على فنَن AQQ دعوتُ صبـــاحQ
وأغضُ مني الطرفَ أعلـم أنـه قد ماتَ خيرُ فوارسي وسلاحـــي
حضرت منيتـُه وأسلمني العَـزا فتمكنت حجر الغضا بجراحـــي

وتمضي عماته وقريباته الأخريات بالبكاء ونفث الحسرات وبث الألم حتى لقد قرأنا أشعارا يسألن فيها الله أن يلحقهن به حبا وألما وكم تمنت أغلب قريباته لو أنهن متن قبل سماع النبأ الحزين فهذه فاطمة رضي الله عنها تقول[45]:

---

(43) م. ن: 87.

(44) ألف باء للبلوي 2/ 545 وقد ذكرها ابن سيد الناس أنها لفاطمة بنت الاحجم وتمثلت بها السيدة فاطمة رضي الله عنها.

فليت قبلك كان الموتُ صادفنــا   لما نـُعيتَ وحالت دونـَك الكتـبُ

فتصبرها هند بنت أثاثة بعزاء يسيل حزنا وتقول(46):

أفاطِمَ فاصبري فلقد أصابــت   مصيبتـُك التهائـــمَ والنجــودا

وأهلَ البرِّ والأبحار طـــُرّا   فلم تخطيء مصيبتـُـه وحيـــدا

وتعبيرا عن الحزن العميق راحت قريباته يفدينه بأرحامهن وبكل غال، منهن عمته أروى التي تقول(47):

ألا يا رسولَ الله كنتَ رجاءنا   وكنتَ بنابّرا ولم تكُ جافيــــا

فدىً لرسول الله أمي وخالتي   وعمّي ونفسي قـُصرةً ثم خاليا

وهي ترى من اشد ما يحزن أن موت النبي صلى الله عليه وسلم سيخلف هما الناس وسيلف المسلمين هرج ينذر بنازلة بعد أخرى فتقول(48):

لعمرك ما أبكى النبيّ لموتـهِ   ولكن لِهرَجٍ كان بعدَـك آتيـــا

فهي مؤمنة بالقدر المقدور، غير أن الله تعالى مكن صحابته الكرام وخليفته الصديق من بث الأمن بعد فراق الأمين عليه الصلاة والسلام ولم يدعوا للشيطان دورا في هدم كيانهم الشامخ الرفيع، فقد ظل ساميا بفعل الرسالة المحمدية التي سار على هديها أصحابه الكرام.

وأخيرا فاننا نقرأ كلمة للسيدة صفية تتمنى فيها لو أنها ماتت قبل أن تسمع نبأ وفاة أبن أخيها العظيم عليه الصلاة والسلام(49):

---

(45) مراثي شواعر العرب 2/ 166.

(46) طبقات ابن سعد 2/ 97.

(47) م. ن: 2/ 97.

(48) طبقات ابن سعد 2/ 97.

لهـفَ نفســي وبتّ كالمســـلوبِ أرق الليل فعلةَ المحـــروبِ
مـن همـومٍ وحســـرةٍ ردفتنـــي ليتَ أني سقيتها بشَـــعوبِ
حين قالوا: إن الرسول قد أمسـى وافقتـــه منيـــة المكتـــوبِ
إذ رأينـــا أن النبـــيّ صريـــعٌ فأشـــابَ القـذال أي مشيـبِ
إذ رأينـــا بيوتَـــه موحشـــاتٍ ليسَ فيهنّ بعدَ عيشٍ حبيبـي
أورثَ القلبَ ذاك حُزنا طويلـــة خالطَ القلبَ فهو كالمرعوبِ
ليتَ شعري وكيفَ أمسي صحيحاً بعدَ أن بينَ بالرسولQ القريبِ

إن صدق مشاعر الحزن في أشعار الصحابيات واضح جدا وأوضح أشعارهن كان نتاج أحزان السيدة فاطمة والسيدة صفية والسيدة هند بنت الحارث والسيدة هند بنت أثاثة بنتي عميه رضي الله عنهن وذلك لرقة أرواحهن وقوة عواطفهن التي بثت في تلك الأشعار فحركت أوتار الأحزان وهاجت مكامن الأسى، وكان أغلب ذلك تأبينا وعزاء، وقل الندب إلا بالسلوك الإسلامي، ولقد ظهر الأثر الإسلامي في أشعارهن وخاصة أشعار السيدتين فاطمة وصفية رضي الله عنهما على الرغم من قرب عهد العصر الإسلامي من العصر الذاهب بقيمه البالية سوى ما أقره الإسلام وهذّبه، ذلك العصر الذي سادت في رثاء نسائه – خاصة – مظاهر الندب الصارخ الذي قد تطول أيامه أشهرا بل سنين، يهتبلن الفرص ليعبرن عن الحزن بضرب الخدود وشق الجيوب وبالتحريض على القتال والقتل والثار .... أقول على الرغم من خضرمة كثير من شواعر الرسول صلى الله عليه وسلم فإن أشعارهن لم تتأثر بموروث الرثاء النادب الخارج عن سبيل الأتزان، فقد كن في مدرسة الإسلام على درجة رفيعة من الخلق والأدب الإسلامي.

---

(49) ديوان صفية، 87.

إن مذاهب الصحابيات في أشعارهن الراثية الحزينة لم تختلف عن مذاهب الرثاء بعامة لدن رجال ذلك العصر الشعراء ونسائه، فقد "أختلف الأدباء في نسبه بعض أشعار صفية – مثلا – وخلطوا بين أشعارها وأشعار حسان بن ثابت الذي كان أشعر الأنصار بل أشعر أهل المدر على حد قول بعض النقاد القدماء" [(50)] فإذا كانت أشعار بعض شواعر النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن تمييزها وعزلها عن أشعار حسان بن ثابت مثلا فذلك دليل واضح على أن أشعارهن كانت على نهج واحد أو نهجين متقاربين من حيث منزلتها الرفيعة وجودة السبك وعمق التصوير وسلامة الألفاظ.

ولقد أقتبس شعراء أمويون وعباسيون بعض معاني شواعر الرسول صلى الله عليه وسلم وألفاظهن، وعلى الرغم من أن بعض ما أوردت المصادر من أشعار لهن لم يكن على درجة عالية من التوثيق، فقد كان العدد الأكبر من القصائد في طبقات أبن سعد (ت 230هـ) ومنها في بلاغات النساء لأحمد بن طيفور (ت 280هـ) والاستيعاب لابن عبدالبر (ت 463) وكان غيرها القليل ممبثوثا في كتب متأخرة كمنح المدح لابن سيد الناس (ت 743هـ) وغيره.

بناء قصيدة الرثاء

لم تنتف الصلة بين شعراء الرثاء في صدر الإسلام وما توارثه الشعراء من تقاليد فنية في بناء القصيدة العربية، بل ظلت قائمة لعدم وجود حد فاصل بين العصرين من حيث البناء الفني وقواعد الشعر وخطوطه العامة، سوى التحول الفكري العقدي الذي أحدثه الإسلام، ولم يلزم الإسلام الشاعر بالتخلي عن التقاليد

---

(50) م.ن: 88.

الفنية الموروثة في بناء القصيدة ولقد كانت أشعار الرثاء معبرة عن العصر بدقة وصدق.

أما الألفاظ والتراكيب فقد توسلتها الشواعر من أديم واقعهن معبرات عن معاناة صادقة مراعيات ما يلائم الرثاء من تلك التراكيب والألفاظ، وبخاصة رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم من غير ما كد أو عناء.

لقد استمر شكل القصيدة في اغلب ما أثر من شعر في الرثاء مقطوعات أو قصائد قصارا، لأنها في اغلبها كانت ومضاتٍ ولـُمَعاً نتاج لحظات من الانفعال لذلك قلما نجد مقدمات تمهد للرثاء، ولم نجد وصفا لمعارك أو لبد الصحراء الذي إعتاده شعراء الرثاء من قبل غير أن أثر الحضارة كان واضحا في نسيج تلك الأشعار فقد ارتبطت ألفاظها بالحياة العربية الحضرية الإسلامية وكذلك كانت تراكيبها التي نهضت بها القصيدة بما تحمله من معان وأفكار.

أما البحور التي حملت تلك المعاني فترتبط كذلك بالحالة الشعورية للشاعر وبانفعاله[51] وخير الأوزان ما يلائم الأفكار ويتساوق مع المعاني وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات نفس الشاعر[52] فيكون البحر ذلولا لها يمتلك القدرة الإيقاعية لاستيعابها ولقد وجدت من خلال أشعار الرثاء ما يصلح للنفس الممتد لم يكن ليصلح لشعر يصور حالة من الهلع أو الندب التي تستدعي الطرب والخفة وتتابع النفس الممتد، وهذا لا يعني أن بحرا ما يختص بموضوع أو غرض دون سواه، لان البحور جميعها حملت عبر تنوع تفعيلاتها وقوافيها وأعاريضها كل مشاعرهم، غير أنا وجدنا أن ما اتخذته شواعر الرسول صلى الله عليه وسلم من بحور كان منسجما

(51) ينظر: في نظرية الأدب د. عثمان موافي، 63.

(52) ينظر: الأصول الفنية للشعر الجاهلي، د. سعد إسماعيل، 115.

وحالتهن النفسية، فقد مخرن البحور القصار وبعض البحور الطوال مما يحتمل حالات الطرب والخفة وسواها كالمتقارب الذي جاء عليه قول السيدة صفية رضي الله عنها[53]:

أفاطـــمَ بكـّـى ولا تســأمـــي ... بصبحك ما طلـع الكوكـــــبُ

والكامل الذي اتخذته السيدة عاتكة رضي الله عنها للتعبير عن حزنها[54]:

يا عينُ جودي ما بقيتُ بعبـــرةٍ ... سحّا على خير البريةِ أحمـــدِ

فابكي المباركَ والموفقَ ذا التقى ... حامي الحقيقةِ ذا الرشادِ المرشدِ

أما ما ورد من ندب وتأبين وعزاء على البحور الطوال فقد استغرق بحرين هما الطويل والبسيط، وقد تمكنت الشواعر من الإبحار على متونها معبرات بصدق عن مشاعرهن وعن عاطفة الحزن الأليمة، تقول السيدة أروى على الطويل[55]:

ألا يا رسولَ الله كنتَ رجاءنـــا ... وكنتَ بنا برّاً ولم تك جافيـــا

صبرتَ وبلـّغتَ الرسالةَ صادقا ... وقمتُ صليبَ الدين أبلغ صافيا

فلو أن ربَّ الناس أبقاك بيننـــا ... سَعِدنا ولكن أمرُنا كان ماضيـــا

وتقول السيدة هند بنت اثاثه على البسيط[56]:

إنا فقدناك فقدَ الأرضِ وابلـَـها ... فاحتلْ لقومِك وأشهدهم ولا تـَغِبِ

وكذلك فعلت السيدة صفية فقالت على البسيط[57]:

يا عينُ جودي بدمعٍ منك منحدرِ ... ولا تـَمَلـّي وبكـّي ســيدَ البشـــرِ

ولا تملـّي بكاكِ الدهرَ معولـــةً ... عليه ما غرّد القمـــريُّ بالسَـــحَرِ

(53) طبقات ابن سعد 2/ 95 وينظر ص 93، 94.

(54) م. ن: 2/ 94.

(55) م. ن: 2/ 94.

(56) م.ن: 2/ 93.

(57) ديوان صفية، المورد/ 89.

أما قوافي أشعارهن فقد غابت عنها الحروف الحوش والحورف النفر لأنهن كن يبثثن أشعارهن على السجية، ولا تصلح تلك الحروف لذلك.

إن مواقف الرثاء كثيرا ما كانت تتساوق فيها المعاني والحروف مع الأوزان على البديهة، وتتحكم في ذلك ثقافة الشاعر ومدى اطلاعه على الثروة الشعرية وألوان الكلم الشعرية وموضوعاته، وكانت اكثر الحروف ورودا، الدال والنون والميم فالياء والراء، وكانت القوافي الشديدة منها تكسب مضمون القصيدة قوة وثباتا، أما الممتدة أو المطلقة منها فكثيرا ما كانت تنسجم وشعره العزاء أو التأبين ولم تكن لتعبر عن الخفة بقدر القوافي المقيدة أية حروف....

أن ما قوّى المعاني في أشعارهن أمورا عديدة أهمها التكرار [58] وقد كثر في رثائهن كثرة ملحوظة من ذلك مقطوعة للسيدة عاتكة بنت زيد التي ترى في حلول المساء حلول الأحزان وغياب الفرحة فهي تقول[59]:

أمستْ مراكبُه أو حشـــــتْ ... فقد كانَ يركبُها زَينُــــها

وأمستْ تبكّـــي علـــى سيــدِ ... تردد عبراتَـها عينُـــــها

وأمستْ نساؤك ما يســـتفقـــ ... ن من الحزن يعتادُها دينها

وأمست شواحبَ مثل النِصـــا ... لQ وقد عُطلّت وكبا لونـُـها

وليس من شك أن في المساء إيحاءً واضحا بالغروب الذي عاشه المسلمون، ومن ذلك نداء العين وانتدابها للبكاء ومن ذلك تكرار صفات النبي وتذكار أمور كثيرة وسوى ذلك وللتكرار أثر كبير يجري في القصيدة جريا لمكان الفقيد من نفس

---

(58) تكرار كلمات أو تراكيب بعينها مما ينسجم وحالات الرثاء.

(59) طبقات ابن سعد 2/ 96 وهناك أبيات لصفية كررت فيها كلمة بكي ويبكيك تسع مرات، ينظر ديوانها المورد /86.

الشاعر ونفس المتلقي على سبيل التوجع، ولتوكيد حالة الحزن والتوجع والهلع والذهول.

الخلاصة

وبعد، فإن أشعار الصحابيات الراثية كان لها خصوصيتها، فلم تدخل فيها مظاهر كانت من لوازم الرثاء عند العرب والشواعر منهم خاصة كلطم الخدود وخمشها، وشق الجيوب وسوى ذلك، ذلك أن الإسلام لم يبق عليها فقد عدها من الجاهلية، ولم يبق من آثار ذلك إلا ما كان يبدو بين الفينة والأخرى بعد عصر النبوة الزاهر بحين ليس بالقصير، كما كانت تظهر مظاهر الجاهلية في ميدان الرثاء حين تنحرف الفطرة إلى غير ما استقامت عليه أو حين تنتاب المرء لحظة من لحظات الضعف البشري التي قد تفقده صوابه.

وبعد سفرنا القاصد إلى عصر صدر الإسلام وبحثنا في أشعار الرثاء التي قالتها سيدات من بيت النبوة في النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم أراني اقف عند أمور أراها خلاصة مكثفة لما جاء في البحث ولعل أهمها:

1. جاء اغلب أشعر رثاء الصحابيات للرسول صلى الله عليه وسلم مقطعات أو قصائد قصارا.
2. خلا أغلب تلك الأشعار من المقدمات، كونها قيلت في أوقات لم تمهل فيه الشواعر للنظم المتأني، فهي لمحات تطرق فتظهر أشعارا معبرة بصدق عن مشاعرهن.
3. أنطقت الحادثة ألسنا لم تكن تعرف بالشعر من قبل.
4. أغلب تلك الأشعار كان بعيدا عن الصنعة، فهي استجابات نفسية لمشاعر الحزن والإحساس العميق بعظم النازلة، كل أولئك

صدر عن عواطف جمعت بين الشعور الشخصي بالفقد والشعور الجماعي به.

5. لم نقرأ أشعارا في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض الشواعر الكبار كالخنساء، ولعل السبب في ذلك كان يكمن في عمق يقينها بمكانة المفقود ولعل ذلك هو الذي أسكنها عن نعي أبنائها وكانوا قد استشهدوا في معارك الجهاد بعد أن كانت قد ملأت أسماع الدهر أشعارا في أخويها من قبل، وقد تكون سنها المتقدمة سببا في عدم قولها فيه شعرا أو أنها كانت قد قالت فيه أشعارا وضاع ما قالته، وكذلك الأخريات.

6. نهجت تلك الأشعار نهج القصيدة القديمة في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم وتعداد مآثرِهِ وأوصافه وخلقه العظيم مع خصوصية أمتاز بها عن البشر أجمعين.

Abstract

Prophets elgy in his women companionse

Dr. Abdallh Fathe Daheer(*)

The wrote many poems in dealing with the prophet's death. And this poetry has many features which differentiate it from the test of the Arabic poetry.

These features could be summerized as follows:

1. Most of it were stanzaic.
2. It was without the traditional introduction.
3. Most of them were it known as poets.
4. It looks like the rest of the Arabic poets in it's artistic structure.

(*) College of Arts / University of Nosul.